من عوامل الاستقرار في العراق [1]

آية الله العظمى السيد محمد الشيرازي
قدس سره

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين واللعنة على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

(من عوامل الاستقرار في العراق) كتاب ألّف لمعرفة عوامل الاستقرار النسبي الذي كان سائداً في العراق قبل الانقلاب الذي قام به عبد الكريم قاسم بتخطيط من بريطانيا حيث أعقبه اضطرابات في العراق منذ ذلك اليوم وإلى هذا اليوم ـــ وهي فترة تقارب ربع قرن ـــ حتى نستكشف من ذلك السبيل إلى إعادة الاستقرار في العراق في المستقبل القريب بإذن الله سبحانه وتعالى، فان الدنيا يقاس مستقبلها بماضيها، وأسباب الاضطراب والاستقرار الماضي هي نفس أسباب الاضطراب والاستقرار في المستقبل في أية بقعة من الأرض، وإنما تتغير الأشكال والألوان وبعض المزايا والخصوصيات، وما نذكره في هذا الكراس مما كان سبباً لشبه استقرار في العراق ثم نقيض ذلك مما سبّب الاضطراب في العراق، لا يخصان العراق وحده، وإنما هما سبب الاستقرار والاضطراب في كل بلد يسود فيه هذا أو يسود فيه ذاك، والله الموفق المستعان.

---

(١) ملاحظة: أخذنا نص هذا الكتاب من الانترنيت موقع الإمام الشيرازي قدس سره، ولابد من مطابقته مع الأصل المطبوع للتأكد من سلامته وعدم التغيير والحذف والتبديل فيه.

الفصل الأول

لمحة من ثورة العشرين

صورة عن عراق ثورة العشرين

كانت ولادتي في العراق في النجف الأشرف بعد زهاء عشر سنوات من ثورة (العشرين) وقد كان العراق بدائياً إلى أبعد حد فلم يكن ماء الإسالة ولا الكهرباء ولا الشوارع المبلطة ولا المواصلات المنتظمة، والمدن كانت قديمة البناء والأزقة ضيقة متعرجة مرتفعة ومنخفضة، وكثير من الأزقة والأسواق كانت مسقّفة بسقوف قديمة، وكانت مياه الأمطار تجتمع في كثير من الأماكن، محدثة الأوحال مدة مديدة في الشتاء، ولم يكن للوسائل الحديثة عين ولا أثر، كالمعامل والمكائن وأسباب الرفاه الموجودة حالياً والإذاعة والتلفزيون ومكائن الخياطة اليدوية والثلاجات والغسالات والمبردات وما أشبه، وقد رأيت أول ما رأيت الكهرباء على الجسر في الكوفة وكانت المصابيح الكهربائية لا تعطي الضوء إلا بما يشبه الشمع ولم تكن تضيء الشارع (أي شارع الجسر) وإنما كانت هي بنفسها مضيئة فلا يعرف الإنسان إلا أن الطريق ممتد حسب امتدادها، وقد رأيت بغداد مدينة شبه خربة فهي وإن كانت أوسع من النجف وكربلاء إلا أنها كانت أيضاً كالنجف وكربلاء والحلة وغيرها مدينة بدائية، وإذا كانت هذه المدن فكيف تكون حالة القرى والأرياف ونحوها؟

وكان الفقر مخيماً على أغلبية الناس، والغالب يعيشون على الزراعة وشيء قليل من الأمور اليدوية والبناء ونحوها.

بعض عوامل الانتصار

وهنا يأتي سؤال وهو أنه كيف تمكن أن يحارب الإمام الشيخ ميرزا محمد تقي الشيرازي (ره) بهذه البلاد البدائية والتي لا تعدو نفوسها خمسة ملايين ـــ على أكثر الفروض ـــ حكومة عصرية حضارية كبيرة جداً كبريطانيا والتي كان نفوذها يشمل أكثر

من ألف مليون في مستعمراتها: الهند والصين ومصر وتركيا وغيرها، وقد كانت الحكومة البريطانية أكبر حكومة في عالم ذلك اليوم وكانت مزوّدة بأحدث الوسائل كالطائرات والقاطرات والبواخر والأسلحة الحديثة والجيش المدرّب، وغير ذلك، بينما العراق لم يكن يملك حتى أسلحة يدوية حديثة باستثناء بعض البندقيات القديمة ونحوها بل كانت أكثر أسلحتهم تنحصر فيما يسمى بـــ(الجراز) و(المكَوار) و(الفالة) وما أشبه؟

الجواب: إن الإمام الثائر تمكن أن يحرك العراق من أقصاه إلى أقصاه بوسائل أهمها:

١ـــ استقطاب العلماء

لقد تمكّن الإمام الشيرازي من استقطاب أكثر من ستين من المجتهدين الذين كانوا مراجع التقليد في ذلك اليوم، أو صاروا مراجع للتقليد فيما بعد، أمثال: شيخ الشريعة الاصبهاني والشيخ محمد كاظم الشيرازي والسيد الوالد وابن العم السيد عبد الهادي الشيرازي والشيخ مهدي الخالصي والسيد أبو الحسن الأصفهاني والشيخ ميرزا حسين النائيني وغيرهم ممن ذكرت أحوالهم في التاريخ مفصلة، فإنهم كانوا معه، ولذا كان معه سائر رجال الدين.

وقد استطاع الميرزا (ره) تحريك العشائر بواسطة هؤلاء الأقطاب وغيرهم، ومن المعلوم أن العراق كان بلداً عشائرياً في ذلك اليوم، بل وإلى هذا اليوم، حتى أن المدن هي امتداد عشائري من قاطني أطراف تلك المدن ونحو ذلك.

٢ـــ أخلاقيات القيادة

وكانت صفاته النفسية (ره) من العلم والحلم والزهد والتقوى والورع، وأخلاقه الاجتماعية من المداراة وحسن الخلق وما أشبه وتدبيره للأمور من العوامل التي سبّبت حبّ الناس له حبّاً منقطع النظير.

وكان من زهده أنه لم يكن يملك حتى داراً لسكنه وإنما كان ساكناً في دار مستأجرة وقد رأيت تلك الدار حيث كان يسكنها أولاده من بعده، ولباسه كان بسيطاً أيضاً وأحياناً كان يلبس الملابس المرقّعة، كما أن طعامه كان بسيطاً إلى أبعد حد.

ومن حسن أخلاقه أنه كان يعفو عمن ظلمه، ويصل من قطعه، ويحلم عمن جهل عليه، حتى أنه ذات مرة سبّه إنسان في وجهه وهو في أوج عظمته وقدرته فعفا عنه، بل فوق ذلك أكرمه بشيء من المال، وبالجملة فقد كانت أخلاقه مثالية، وكان رحب الصدر جداً ولم يتغير بعد تزعّمه للمرجعية أبداً حتى أن أحد المراجع نقل لي أنه قال الميرزا (ره) ذات مرة له وللآخرين من الطلبة: إن أشغالي اليوم قد تكثرت وأنا أقوم اليوم بزعامة دينية وثورة ضد الحكومة البريطانية، ورؤساء العشائر ومن إليهم يكثرون حولي، ولعل لأحدكم حاجة فلا يتمكن من الوصول إليّ، فإذا كانت لأحدكم حاجة فإني في كل يوم أتمشى على شاطئ النهر (المسمى بنهر الحسينية) بعد صلاة الصبح فمن كانت له حاجة إليّ ويريد أن يواجهني شخصياً فليأت لمقابلتي هناك، وقال المرجع الذي نقل لي القصة: وقد ذهبت أنا عدة مرات إليه لبعض حاجاتي في ذلك الوقت، فكنت أراه إما يتمشى وحده وإما هناك بعض الطلبة من أصحاب الحوائج يلتفون حوله يسألونه عن المسائل، أو يتقاضون منه حوائجهم أو ما أشبه ذلك، كما قال أيضاً: لم تكن أخلاقه بعد زعامته الدينية ومرجعيته للشيعة عامة وبعد قيامه بالثورة تختلف عن أخلاقه في الأيام التي لم يكن فيها محوراً للدين وللدنيا، وهذا الأمر ـــ وهو كونه مرجعاً أعلى للشيعة في عالم ذلك اليوم إلى جانب خوف بريطانيا من توسّع دائرة الثورة والجهاد إلى سائر مستعمراتها ممن كان أهلها من مقلّدي الإمام أمثال كثير من سكان الهند والصين وإيران والخليج وقفقاز وغيرها ـــ سبّب أن البريطانيين لم يلحوا في البقاء في العراق، ولو بإبادة أهلها، فقد حدثت في تلك الظروف اضطرابات في الهند والصين وإيران ومصر وغيرها كما هو معروف، ولذا انتهت الثورة باستقلال العراق بعد ما قتل العراقيون من البريطانيين زهاء ثمانين ألفاً (وفي بعض الأقوال زهاء مائة ألف) وقتل البريطانيون من العراقيين زهاء مائتي ألف كما حدّثنا بذلك بعض رجال الثورة ممن رأيتهم أمثال: السيد محمد الطباطبائي، والسيد مرتضى الطباطبائي، والشيخ عبد الحسين الشيرازي، والشيخ محمد رضا الشيرازي، ابني الإمام الثائر، والسيد محمد حسين الكشميري والسيد محمد الكشميري والشيخ جعفر الرشتي وغيرهم من الذين عاصروا الثورة وكانوا من قادة الثورة.

وربما يسأل سائل أنه حيث كان الميرزا قائماً بالثورة وكان بهذه البساطة من المعيشة حيث لم يكن له حفظة وحجّاب وما أشبه حتى أنه كان يتمشى يومياً في الصباح الباكر على النهر، وكذلك كان يذهب إلى الدرس وإلى الحرم الشريف وغيرها فلماذا لم يقم البريطانيون باغتياله، بينما كان ذلك بسيطاً إلى أبعد حد؟

والجواب: إن الاغتيال يحدث إما على أيدي بعض الناس المتدينين أو على أيدي البريطانيين، وحيث قد عرفت الأخلاق الرفيعة للميرزا ورضا الخاصة والعامة عنه فلم يكن هناك من يفكر في اغتياله من الناس وإنما كان محبوباً عند الجميع وحتى لو كان هناك من يكرهه فلم تكن الكراهة تصل إلى حد الاغتيال.

وأما البريطانيون فإنه كان بإمكانهم اغتياله وكان سهلاً جداً، إلا أنّهم كانوا يعلمون أن اغتياله يعود عليهم بالضرر الأكيد، حيث إن الاغتيال لا يخفى على أحد وينتج أن تشتد ضراوة الحرب بين البريطانيين وبين العراقيين بل وتمتد إلى سائر الأقطار، لكن البريطانيين توصلوا إلى طريقة ذكية للاغتيال حيث تمّ اغتياله بالسم في قصة مفصلة.

٣ــ القدرة المالية

والسبب الثالث الذي به تمكن الشيخ الإمام من قيادة الثورة ضد البريطانيين إلى النصر وانتزاع الاستقلال للعراق هو أن المرجعية العليا للميرزا كانت تدر عليه أموالاً كثيرة، وقد صرف الميرزا تلك الأموال في الثورة، فكانت الأموال توزّع على العشائر بكثرة هائلة، كما كانت توزّع على الفقراء والمساكين ومن إليهم، فقد حدثني بعض رجال الثورة أن الميرزا كان يوزّع أكياساً كبيرة من الليرات الذهبية على العشائر كما حدثني الشيخ محمد كاظم الشيرازي (رحمه الله) أنه أحياناً كان يؤخّر الميرزا شهريات الطلاب لأجل صرف المال بين العشائر وفي أمور الحرب، كما أنه حدثني أحد وكلاء الميرزا في توزيعه المال على الطلاب والفقراء والمساكين قال: كان الميرزا يعطيني أكياساً من المال لأجل التوزيع على الطلاب والفقراء والمساكين قال: وذات مرة في الليل دخلت داره وصعدت إلى السطح، حيث لم أره في غرفته وكان عهدي به أنه يذهب إلى السطح لأجل العبادة في كل ليلة، ولما أشرفت على السطح رأيت الميرزا مخففاً ملابسه وهو يتمرّغ على التراب ويبكي بكاءً مرّاً، لكني لم أُظهر نفسي بل رجعت إلى الوراء ونزلت بعض الدرج،

ثم أخذت أقول: يا الله يا الله وأنا أنظر إلى الميرزا من طرف خفي فلما أحسّ الميرزا بصوتي قام من مكانه ومسح دموع عينيه ولبس عمامته وقباءه، وجلس على الأرض، وقال: (تفضلوا)، فصعدت فأعطاني كمية من الليرات وقال: أعطها للطلبة وللفقراء وغيرهم. ثم قال: ولا تقل هذا يستحق وهذا لا يستحق، وإنما عليك أن تعطي الكل.

ومن المعروف أن المال أحد أركان التقدم في الحياة، وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (لولا مال خديجة وسيف علي لما استقام الإسلام).

فإن من الواضح أن المال كان يساعد الفقراء من المسلمين وغير المسلمين على التقدم والاستمرار، كما أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يعطي المال للكفار أيضاً كما في قصة فتح خيبر، وأنه (صلى الله عليه وآله وسلم) أرسل كمية من المال إلى كفّار مكة لتأليف قلوبهم، الكل يعلم أن مكة كانت في حالة حرب مع رسول الله، وكذلك الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يعطي سهماً للمؤلفة قلوبهم من المؤمنين الضعاف الإيمان كما ورد في القرآن الحكيم، (وكان يجيز الوفود بالأموال).

كما أن السيف كان لدفع المهاجمين، ولذا لم يستعمل علي (عليه الصلاة والسلام) السيف ولو مرة واحدة للهجوم وإنما استعمله دفاعاً سواء في حياة رسول الله أو بعد حياته فإن حروب الرسول صلى الله عليه وآله كانت كلها دفاعية، كما أن حروب الجمل والنهروان وصفين كانت كلّها دفاعية فليس معنى هذه الجملة (سيف علي عليه السلام)، إن الإسلام وضع السيف هجوماً، وإنما وضع السيف دفاعاً.

وعلى أي حال، فإن من المشاهد في التاريخ القديم والحديث أن للمال دوراً كبيراً سواء في الحق أو في الباطل فتقدم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وكان من أسبابه المال الذي وفّر له بسبب السيدة خديجة عليها الصلاة والسلام.

كما أن من أسباب قتل الإمام الحسين عليه الصلاة والسلام المال الذي فرّقه ابن زياد في رؤساء العشائر، وقد قال فوق منبره لما أراد تحريضهم على قتل الإمام الحسين عليه الصلاة والسلام (وهذا يزيد كذا وكذا، وقد زاد في عطائكم مائة مائة) ثم فرّق الصفراء والبيضاء التي كانت مكدسة في بيت المال على الناس، وأخرجهم إلى حرب الحسين عليه الصلاة والسلام ولكن لا يخفى أن الكل لم يحاربوا الحسين عليه الصلاة والسلام بل كانت

السجون ممتلئة بالناس الذين أبوا الانصياع إلى أوامر ابن زياد، وقد ورد في بعض التواريخ أن من بين كل ألف شخص كان يرسله ابن زياد إلى الكوفة كان يهرب منهم ستمائة، ومعنى ذلك أن عبدة المال هم الذين حاربوا الحسين عليه الصلاة والسلام، كما أن بعضهم حاربوه لأجل المنصب والجاه أمثال عمر بن سعد فلم تكن الحرب منهم لأجل الدين والعقيدة، بل صرح عمر بأنه لا دين له قائلاً(١).

فوالله مـــا أدري وإنـــي لحائـــــر***أفكـــــر في أمري على خطريـــن

أأترك ملك الرّي والري منيتي***أم أرجـــع مأثوماً بقـــتـــل حسيـــن

حسين بن عمـــــــــي والحـــوادث***لعمري ولـــي في الرّي قرة عين

يقولـــــون إن الله خالـــــق جنـــة***ونـــــار وتعـــذيـــب وغـــل يديـــن

فإن صدقوا فيـــما يقولون إنني***أتوب إلـــى الرحمـــــن من سنتين

وإن كذبوا فزنـــا بدنيا عظيمـــة***وملك عظـــيـــم دائـــم الحجليـــن

ولا يخفى أنه لم تكن عبادة المال من قِبَل أولئك الذين حاربوا الحسين عليه السلام من أهل الكوفة فقط، بل كان أهل الشام وغيرهم كذلك أيضاً.

مثلاً: نجد في كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة، أنه لما اصطلح عبد الملك وعمرو بن سعيد على أنه الخليفة بعده، أرسل عبد الملك إلى عمرو بن سعيد نصف النهار أن ائتني أبا أمية، قال: فخرج ليأتيه، فقالت له امرأته: لا تذهب إليه، فإني أتخوفه عليك، وإني لأجد ريح دم مسفوح. قال: فما زالت به حتى ضربها بقائم سيفه، فشجها، فتركته، فأخرج معه أربعة آلاف رجل من أهل دولته، لا يقدر على مثلهم، مسلّحين، فأحدقوا بخضراء دمشق، وفيها عبد الملك بن مروان، فقالوا لعمرو: إذا دخلت على عبد الملك بن مروان يا أبا أمية ورابك منه شيء فأسمعنا صوتك، فقال لهم: إن خفي عليكم صوتي و لم تسمعوه، فالزوال بيني وبينكم ميعاد، إن زالت الشمس و لم أخرج إليكم، فاعلموا أني مقتول أو مغلوب، فضعوا أسيافكم ورماحكم حيث شئتم، ولا تغمدوا سيفاً حتى تأخذوا بثأري من عدوّي.

قال فدخل، وجعلوا يصيحون: يا أبا أمية أسمعنا صوتك، وكان معه غلام أسحم شجاع، فقال له: اذهب إلى الناس فقل لهم: ليس عليه بأس ليسمع عبد الملك أن وراءه ناساً، فقال له عبد الملك: أتمكر يا أبا أمية عند الموت! خذوه فأخذوه، فقال له: إن أمير المؤمنين قد أقسم ليجعلنّ في عنقك جامعة فجعل ثم نتر إلى الأرض نترة، فكسرت ثنيته. قال: فجعل عبد الملك ينظر إليه.

فقال عمرو: لا عليك يا أمير المؤمنين، عظم انكسر.

فقال عبد الملك لأخيه عبد العزيز: اقتله حتى أرجع إليك. قال: فلما أراد عبد العزيز أن يضرب عنقه قال له عمرو: تمسّك بالرحم يا عبد العزيز أنت تقتلني من بينهم فتركه، فجاء عبد الملك فرآه جالساً، فقال له: لِمَ لم تقتله؟ لعنه الله ولعن أُماً ولدته، قال: فإنه قال: تمسّك بالرحم فتركته.قال: فأمر رجلاً عنده يقال له ابن الزويرع، فضرب عنقه ثم أدرجه في بساط ثم أدخله تحت السرير(٢).

قال: فدخل عليه قبيصة بن ذؤيب الخزائي، وكان أحد الفقهاء، وكان رضيع عبد الملك بن مروان، وصاحب خاتمه ومشورته، فقال له عبد الملك: كيف رأيك في عمرو بن سعيد؟ فأبصر قبيصة رجل عمرو تحت السرير، فقال: اضرب عنقه يا أمير المؤمنين، فقال له عبد الملك: جزاك الله خيراً، فما علمتك إلا ناصحاً أميناً موفقاً، قال: فما ترى في هؤلاء الذين أحدقوا بنا، وأحاطوا بقصرنا؟ قال قبيصة: اطرح رأسه إليهم يا أمير المؤمنين، ثم اطرح عليهم الدنانير والدراهم يتشاغلون بها. قال: فأمر عبد الملك برأس عمرو أن يطرح إليهم من أعلى القصر، فطرح إليهم، وطرحت الدنانير، ونثرت الدراهم، ثم هتف عليهم هاتف ينادي: أن أمير المؤمنين قد قتل صاحبكم، بما كان من القضاء السابق والأمر النافذ، ولكم على أمير المؤمنين عهد الله وميثاقه أن يحمل راجلكم ويكسو عاريكم، ويغني فقيركم، ويبلغكم إلى أكمل ما يكون من العطاء والرزق، ويبلغكم إلى المائتين في الديوان، فاعترضوا على ديوانكم، واقبلوا أمره، واسكنوا إلى عهده، يسلم لكم دينكم ودنياكم، قال: فصاحوا نعم، نعم، سمعاً وطاعة لأمير المؤمنين.

وفي نفس الكتاب(٣): أن جريراً لم يزل بأبي مسلم حتى أقبل به، وكان أبو مسلم يقول: والله لأقتلنّ في الروم، فأقبل منصرفاً، فلما قدم على أبي جعفر وهو يومئذ بالرحبة

من المدائن، أمر الناس يتلقونه، وأذن له فدخل على دابته، ورحّب به وعانقه وأجلسه معه على السرير، وقال له: كدت أن تخرج ولم أفض إليك بما أُريد، فقال: قد أتيت يا أمير المؤمنين إليك فليأمرني بأمره، قال: انصرف إلى مترلك وضع ثيابك وادخل الحمام ليذهب عنك كلال السفر، وجعل أبو جعفر ينتظر به الفرصة فأقام أياماً يأتي أبا جعفر كل يوم فيريه من الإكرام ما لم يره قبل ذلك حتى إذا مضت له أيام أقبل على التجني فأتى أبو مسلم إلى عيسى بن موسى فقال: أركب معي إلى أمير المؤمنين فإني قد أردت عتابه بمحضرك، فقال عيسى: أنت في ذمتي فأقبل أبو مسلم فقيل له: ادخل فلما صار إلى الزقاق الداخلي قيل له إن أمير المؤمنين يتوضّأ، فلو جلست، فجلس وأبطأ عيسى بن موسى عليه، وقد هيأ له أبو جعفر عثمان بن مهيك وهو على حرسه في عدة فيهم شبيب بن رياح وأبو حنيفة حرب بن قيس، فتقدم أبو جعفر إلى عثمان، فقال له: إذا عاتبته فعلا صوتي فلا تخرجوا، وجعل عثمان وأصحابه في ستر خلف أبي مسلم في قطعة من الحجرة، وقد قال أبو جعفر لعثمان بن مهيك إذا صفّقت بيدي فدونك يا عثمان، قيل لأبي مسلم: إنه قد جلس أمير المؤمنين فقام ليدخل، فقيل له: انزع سيفك فقال: ما كان يصنع بي هذا، فقيل: وما عليك، فنزع سيفه وعليه قباء أسود وتحته جبة خز.

فدخل أبو مسلم وجلس على وسادة ليس في المجلس غيرها وخلف ظهره القوم خلف الستر، فقال أبو مسلم: صنع بي يا أمير المؤمنين ما لم يصنع بأحد، نزع سيفي من عنقي قال: ومن فعل ذلك قبّحه الله، ثم أقبل يعاتبه فعلا صوته، فقال: يا أمير المؤمنين لا يقال مثل هذا لي على حسن بلائي، وما كان مني.

فقال له أبو جعفر: يا بن الخبيثة والله لو كانت أمة أو امرأة مكانك لبلغت ما بلغت في دولتنا، ولو كان ذلك إليك ما قطعت فتيلاً، ألست الكاتب اليّ تبدأ بنفسك والكاتب اليّ تخطب آمنة ابنة علي ابن عمي، وتزعم أنك أبو مسلم ابن سليط بن عبد الله بن العباس، ولقد ارتقيت لا أم لك مرتقاً صعباً قال وأبو جعفر ترعد يده.

فلما رأى أبو مسلم غضبه قال: يا أمير المؤمنين لا تدخل على نفسك هذا الغم من أجلي، فإن قدري أصغر مما بلغ منك هذا، فصفق أبو جعفر بيده فخرج عثمان بن مهيك فضربه ضربة خفيفة فأومأ أبو مسلم إلى رجل أبي جعفر يقبلها ويقول: أنشدك الله يا أمير

المؤمنين استبقني لأعدائك، فدفعه برجله وضربه شبيب على حبل العاتق فأسرعت فيه، فقال أبو مسلم: وانفساه لا قوة ولا مغيث، صاح أبو جعفر: اضرب لا أم لك فاحتوشوه القوم بسيوفهم فقتلوه، فأمر به أبو جعفر فكفن بمسح، ثم وضع في ناحية، ثم قيل: إن عيسى بن موسى بالباب، فقال: أدخلوه، فلما دخل قال: يا أمير المؤمنين فأين أبو مسلم؟ قال: كان هاهنا آنفاً فخرج، فقال: يا أمير المؤمنين قد عرفت طاعته ومناصحته ورأي إبراهيم الإمام فيه، قال له أبو جعفر: يا انوك والله ما أعرف عدواً أعدى لك منه، ها هو ذا في البساط، فقال عيسى: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، فأقبل إسحاق صاحب شرطته قال: إنما كان أبو مسلم عبد أمير المؤمنين، وأمير المؤمنين أعلم بما صنع، فأمر أبو جعفر برأسه فطرح إلى من في الباب من قواد أبي مسلم، فجالوا جولة وهموا أن يبسطوا سيوفهم على الناس، ثم ردهم عن ذلك انقطاعهم من بلادهم وتغرّبهم وإحاطة العدو بهم، فبعضهم اتكأ على سيفه فمات وبعضهم ناصب وأراد القتال، فلما نظر أبو جعفر إلى ذلك أمر بالعطاء لأصحاب أبي مسلم، وأجزل الصِلات للقواد والرؤساء منهم، ثم عهد إليهم: أن من أحب منكم أن يكون معنا هاهنا نأمر بإلحاقه في الديوان في ألف من العطاء، ومن أحب أن يلحق بخراسان كتبناه في خمسمائة ترد عليه في كل عام وهو قاعد في بيته.

قال: فكأنما نار قد طُفِئت، فقالوا: رضينا يا أمير المؤمنين كلما فعلت فأنت الموفق، فمنهم من رضى بالمقام معه، ومنهم من لحق بخراسان. انتهى.

وهكذا المال يصنع في كل مكان صنعه، إن أحسن صرفه كان سبيلاً إلى الحق، وإن أُسيء صرفه كان سبيلاً إلى الباطل.

(١) ــ انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير، ج٤، ص٥٢، وص٥٣.

(٢) ــ الإمامة والسياسة ج٢، ص٢٦.

(٣) ــ الإمامة والسياسة ج٢، ص١٦١.

الفصل الثاني
من عوامل الاستقرار في العراق

١ــ توزيع القدرة

قد كان من عوامل الاستقرار في العراق توزيع القدرة بين ثلاث طوائف رئيسية هم:

الفقهاء المراجع

والعشائر

والأحزاب.

فقد كان التقليد موزعاً بين علماء كبار أمثال: المرحوم السيد أبو الحسن الاصبهاني، والمرحوم الشيخ ميرزا محمد حسن النائيني والمرحوم الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء وغيرهم من المراجع، وكان بين هؤلاء تنافس على البر والتقوى والتقدم والتقديم، وكما قال الله سبحانه وتعالى (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون)(١) فكان كل واحد منهم يبني مدرسة ويربي طلبة ويهيّئ الكتب ويؤسس المكتبات وما إلى ذلك.

كما أن كل واحد منهم كان يرسل المبلغين إلى أطراف البلاد ويبني المساجد والحسينيات والمدارس في مختلف المدن، كل بقدره من الكبر أو التوسط أو الصغر، ولذا ازدهر العلم وتقدمت الحوزة العلمية تقدماً كبيراً، وأخذ الناس ينظرون إلى العلم والعلماء بنظر الإجلال والاحترام، وقد كتبت الكتب العلمية المفيدة في ذلك الوقت أمثال كتب الشيخ ميرزا حسين النائيني، والشيخ ضياء الدين العراقي والشيخ محمد حسين الأصفهاني في الفقه والأصول وفي غيرهما، والحصون المنيعة للشيخ كاشف الغطاء، والغدير للشيخ عبد الحسين والذريعة للشيخ آقا بزرك الطهراني، والهدى والرحلة المدرسية وغيرهما للشيخ جواد البلاغي، والوسيلة للسيد أبو الحسن الأصفهاني إلى غيرها من الكتب العلمية المفيدة، والتي هي مصدر مهم للمسلمين إلى هذا اليوم وستبقى مصدراً لهم إلى ما شاء الله.

كما أنه كان هناك تنافس إيجابي حر بين العلماء في النجف الأشرف وبين العلماء في سائر البلاد في تأسيس الحوزات العلمية وتربية الطلاب وبناء الأبنية الخيرية أمثال السيد

حسين القمي في كربلاء والشيخ عبد الكريم الحائري في قم وغيرهما من المراجع في سائر البلاد.

وقبل هؤلاء كانت هناك أيضاً حالة التنافس في الخير والتقدم والتقديم بين كبار المراجع مثلاً: بنى الميرزا الكبير في سامراء المدرسة المعروفة باسمه، كما بنى الشيخ المهدي الخالصي في الكاظمية مدرسته المشهورة، وبنى آل حيدر في الكاظمية حسينيتهم المعروفة، وكذلك في إيران ولبنان وغيرهما من سائر البلاد مما نحن لسنا بصدد الكلام حولها الآن.

ومن الواضح، أن المنافسة الإيجابية الحرة في سبيل التقديم والتقدم توجب كل خير ورفاه، كما توجب تقديم الأفضل فالأفضل، والأكفأ فالأكفأ، بخلاف الاستبداد والدكتاتورية فإنه بالعكس من ذلك يوجب تقديم الأسوأ فالأسوأ والأقل كفاءة فالأقل، لأن ميزان المنافسة الحرة هي الحقائق والواقعيات والكفاءات.

فحيث كانت الحرية ينتخب الناس الأفضل فالأفضل وبذلك يقبل الناس على مزيد من الفضيلة، بينما الاستبداد يعطي الأفضلية لمن يصفق للرئيس أكثر فأكثر، ويمتثل أوامره أسرع، ولذا كان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يجعل بين المسلمين التنافس، وقصة مسابقاته، وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم): أنا مع الحزب الذي فيه ابن الأردع مشهورة ذكرها الفقهاء في كتاب السبق أسرع الرماية.

٢ـــ العشائر المتنافسة

وهكذا كانت القوة الثانية التي أوجبت الاستقرار في العراق هي العشائر المتنافسة، فإن العراق كان بلداً عشائرياً ولم يزل كذلك إلى اليوم ولا يزال إلى ما شاء الله، والعشائر كانت تتنافس فيما بينها في الزراعة والعمارة والتجارة والثقافة وتقليد المراجع واتباع علماء الدين وإقامة الشعائر وما أشبه.

والسيد أبو الحسن رحمه الله أخذ بزمام العشائر بواسطة أمنائه من رجال الدين أمثال: آل الجواهري، وآل بحر العلوم، وآل الشيخ راضي، وآل الجزائري، وغيرهم، وبذلك سبّب للحوزات العلمية وللعتبات المقدسة القوة وللزائرين الرفاه وللعراق عامة الاستقرار والاستقامة حتى كانت الحكومات تهابه وتخشاه لما يستند إليه من القدرة العشائرية المتزايدة، حيث كانت العشائر المسلحة والكبيرة سند العلماء وسند الحوزات

وسند العتبات وسند المؤمنين وسند الزوار وسند الاقتصاد وغير ذلك، فقد فرضت قوة العشائر بقيادة العلماء حالة من التوازن بين قوة الدولة وقوة الأمة حتى جاء عبد الكريم قاسم بأمر من أسياده المستعمرين البريطانيين ففرق العشائر وجعل التضارب بين الرؤساء والمرؤوسين وخلع السلاح منهم، وقد تمكن أن يجمع من سلاح العشائر في مدة قليلة مليون قطعة في قصة معروفة مما سبب سقوط السلاح من يد الأمة وسقوط سندية العشائر من يد المراجع والعلماء وبذلك اختلف ميزان القوى وصارت القوة كلّها بيد الدولة تفعل ما تشاء بالأمة بأمر الأسياد البريطانيين مما آل الأمر إلى حزب البعث الذي جاءت بهم إلى الحكم بريطانيا وإسرائيل وأمريكا مجتمعين وقصتهم الجنائية معروفة.

٣ــ الأحزاب شبه الحرة

والقدرة الثالثة التي كانت في البلاد هي قدرة الأحزاب، فقد كانت حكومة العراق ملكية ذات أحزاب نصف حرة، ووصل عدد الأحزاب إلى أربعة وأربعين حزباً وكانت لهذه الأحزاب الصحف والتجمعات وما إلى ذلك.

صحيح أن هذه الأحزاب لم تكن حرة، كما أنها لم تكن إسلامية، إلا أنها كانت تتنافس بينها مما سبّب الاستقرار للناس وأمن البلاد نسبياً، فكل حزب كان يترصّد للحزب الآخر أي خطأ صغير حتى يريه للناس ليجلب الناس إلى نفسه، وبذلك سلمت إلى حد ما العتبات المقدسة والحوزات العلمية وسلم الزائرون وسلم الاقتصاد والاجتماع والسياسة في نطاق محدد.

وإني اذكر كيف أن الحكومات كانت تحتاط من الأحزاب المناوئة حتى أن رئيس الوزراء لّما أراد قتل المحامي (السيد الأعرجي) لأنه اتّهم بأنه قتل حاكماً في المحكمة، وكان ذلك القتل يعد ثلاث جنايات في عرف القانون في ذلك اليوم (قتل الإنسان) وهون جناية واقعية ثم (قتل الحاكم) والحاكم كان يمثل الملك فقتله كان خرقاً لاحترام الملك وكون (وقوع القتل في المحكمة) حيث كانت المحكمة مكاناً مقدساً في القانون، ومع ذلك لم يكن يتمكن وهو رئيس الدولة من قتل هذا المحامي إلا بعد محاكمات طويلة وأخذ وعطاء ومناقشات طويلة من الأحزاب ومن المنظمات ومن العلماء ومن العشائر وغير ذلك، إلى أن تمكن من تنفيذ الحكم فيه بالقتل بعد مدة طويلة من الزمن.

وبعد قتله أُغلقت لأجله الدكاكين رغم أنف الدولة وأقيمت له الفاتحة واحتفوا به احتفافاً.

ولذا لم تكن في ذلك الزمان حادثة مصادرة أموال أو إعدام أو سجن أو ما أشبه إلا قليلاً وكانت الأسواق مزدهرة والبناء قائماً على قدمٍ وساق، والأمن مستتباً والتجارة تصدر وتستورد بحرية، والمدارس والجامعات والمكتبات وما إليها آخذة بالنمو وكذلك كان حال سائر المرافق أمثال الطب والهندسة والقضاء وغيرها.

والحاصل: أن تقسيم القدرة بين هذه الطوائف الثلاث ثم تقسيم القدرة التي بيد كل طائفة بين أحزاب وعشائر وعلماء ومراجع سبب استقرار العراق استقراراً قليل النظير وذلك رغم ارتباط الحكم بالاستعمار ورغم سلبياته الكثيرة إلا أن العلماء والعشائر والأحزاب كانت تقف سدّاً أمام تنفيذ كل مآربه، ولا يرجع العراق إلى الاستقرار إلا بهذه البنود الثلاثة وأمثالها.

الاستقرار في ظل الإسلام

لكن من الضروري أن يعلم أنه يجب توزيع القدرة في العراق على الشكل الإسلامي وهو عبارة عن مجلس أعلى للفقهاء المراجع يفصلون الأمور السياسية والاجتماعية والاقتصادية في الإطار الإسلامي بأكثرية الآراء، ثم يلزم أن تكون هناك أحزاب إسلامية حرة متنافسة نابعة عن المراجع فكل مرجع يشكّل حزباً يجمع الشباب حتى لا يبقى الشاب المسلم لقمة سائغة في أفواه الغرب والشرق. كما رأينا ذلك في أيام الشيوعيين والبعثيين والقوميين، وغيرهم.

كما يجب أن تكون في البلاد قوانين إسلامية بحتة، فإن المسلمين إذا رأوا من الحكومة قوانين غير إسلامية أخذوا يحاربون الحكومة والحكومة تأخذ في محاربتهم وينتهي الأمر بالنتيجة إلى سقوط الحكومة، وعليه فإذا أخذ فقيه واحد بالزمام أو حزب واحد أو لم تعد القوانين إسلامية، فإن ذلك لا يرجع إلى العراق بالخير، ولا يمكن أن تسمى مثل هذه الحكومة إسلامية ـــ التي يستبد بها فقيه واحد بالحكم (مع وجود فقهاء أكفاء آخرين) أو يستبد حزب واحد، ولو باسم الإسلام بالحكم، أو لم تكن بعض القوانين

القضائية أو قوانين الحريات أو قوانين المعاملات أو قوانين الضرائب أو غيرها إسلامية ـــ ولا يمكن أن تسمى البلاد إسلامية بالمعنى الكامل.

ثم بعد هذه الأمور الثلاثة من شورى المرجعية والأحزاب الإسلامية الحرة والقوانين الإسلامية يجب أن يعد العراق، لأن يكون جزءً من دولة إسلامية عالمية ذات ألف مليون مسلم، فإن الإسلام ليست له إلا دولة واحدة فالرب واحد والقرآن واحد، والرسول واحد، والقوانين واحدة، والأمة واحدة، والأخوة الإسلامية لكل المسلمين والحدود الجغرافية غير موجودة في البلاد الإسلامية.

والانتخابات يجب أن تكو حرة بما في الكلمة من معنى.

وقد روى عن أمير المؤمنين (عليه الصلاة والسلام) أنه قال: الواجب في حكم الله وحكم الإسلام على المسلمين بعد ما يموت إمامهم أو يقتل ضالاً كان أو مهدياً أن لا يعملوا عملاً ولا يقدموا يداً ولا رجلاً قبل أن يختاروا لأنفسهم إماماً عفيفاً عالماً ورعاً عارفاً بالقضاء والسنّة يجبي فيئهم ويقيم حجهم وجمعهم ويجبي صدقاتهم ـــ الحديث ـــ .

وحيث ذكرنا تفصيل هذه الأمور في كتبنا الفقهية وكتاب (السبيل إلى إنهاض المسلمين) وغيره، فلا داعي إلى تكراره.

ثم إن القوى الثلاث تنبع من مجلس لشورى الفقهاء المراجع متعاونين مع الأحزاب الإسلامية النابعة منهم المتخصصة في الجهات السياسية وغيرها، ونعني بالقوى الثلاث، القوة التنفيذية والقوة التشريعية (والمراد بها القوة التأطيرية المتمثلة في مجلس الأمة) والقوة القضائية منتهى الأمر أن العشائر في الزمان السابق كانت تمثّل القوة الضاربة للأمة في البلاد، وحيث وجدت في العصر الحاضر التجمعات الثقافية لزم تشكيل المنظمات بالإضافة إلى ما بقي من قدرة العشائر.

شرائط النهضة

إن من اللازم أيضاً على الحركة الإسلامية سواء قامت في العراق أو في غيره أن يلاحظ القائمون بالحكم وبالفكر فيها أن القوى الكبرى المتجمعة في الشرق والغرب أمثال: قوة أمريكا وقوة أوربا، وقوة الاتحاد السوفيتي، لا تفتأ في تحطيم هذه القدرة الإسلامية الناشئة بسبب أمور خمسة هم آخذون بأزمتها:

الأول: الاقتصاد العالمي الذي يسبب الضغط على الحكومة الفتية بمختلف أنحاء الضغوط إلى حين سقوطها.

الثاني: العسكرية العالمية التي تسبب الضغوط المتزايدة على الحكومة الفتية بسبب القوة والسلاح، فمن الطبيعي أن الأثرياء يميلون إلى الاقتصاد العالمي مما يسببون ضغطاً متزايداً في داخل الدولة.

كما أن الجيش في داخل الدولة يميل إلى القوة العسكرية العالمية، فإن الأضعف تابع للأقوى دائماً والجنس يميل إلى جنسه.

الثالث: الصناعة، حيث إن بلادنا الإسلامية صارت تبعاً للغرب والشرق اللذين يشتريان منها المواد الخام غير المصنّعة ثم يرجعان إليهم مواد صناعية مما يسبب دوران البلاد الإسلامية في الأفلاك الغربية والشرقية.

الرابع: السيل الهادر من الكفاءات المتواجدة في الغرب والشرق والتي منها قدرة الإعلام وقدرة التخريب وقدرة الجواسيس وما إلى ذلك فإذا لم تتمكن الحكومة الإسلامية من علاج ذلك بإنماء الكفاءات الإسلامية المتنوعة حتى تتمكن من أن تقف أمام تلك الكفاءات المخربة، ينتهي الأمر بالآخرة إلى سقوط الدولة.

الخامس: المثالية (المزعومة) في البلاد الغربية حيث يتوفر فيها نوع من الحريات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية وما إلى ذلك، ثم النظام والنظافة ونحوهما مما يسبب أن العالم الثالث ينظر إلى ذلك العالم بكل تقدير واحترام فإنه إذا لم تتوفر المثالية في البلاد الإسلامية يأخذ الناس في هذه البلاد بإسقاط الحكومة حتى يصلوا إلى تلك المثالية المزعومة في الغرب فاللازم تغيير أسلوب الثقافة في بلاد الإسلام التابعة للثقافة العالمية من الروضات وإلى الجامعات فإنها تربى على الخط العالمي مما يعد ركيزة للغرب والشرق وتأخذ في هدم الدولة الفتية إلى حين السقوط.

فاللازم على الحكومة الإسلامية إذا قامت في العراق أو غير العراق (وبالمقومات التي ذكرناها) أن تلاحظ هذه الأمور الخمسة وتحول دون الضغوط التي يوردها العالمان الغربي والشرقي على الأمم الناهضة وهذا هو السر لما نشاهد من أنه قد مضى إلى الآن ما يقارب مائة سنة والبلاد الإسلامية تتطلع إلى النهوض، لكنها تتراجع غالباً أكثر فأكثر إلى أحضان

الغرب والشرق وذلك رغم ما يوجد في البلاد الإسلامية من حشود من المخلصين العاملين لأجل إقامة الإسلام واستقلال البلاد، لكن ذلك لا يحصل لأنهم على الأغلب لا يأخذون بالحسبان هذه الأمور الخمسة التي ذكرناها، ولا يعالجون الوضع معالجة جدية واقعية بل نشاهد بعضاً من الذين كان ظاهرهم الإخلاص قبل الوصول إلى الحكم إذا وصلوا إلى الحكم بدأوا بقتل الأبرياء ومصادرة الأموال والزج بالألوف من الناس في السجون الرهيبة والتكبر والغرور والاستبداد بالحكم بدون استشارة من الناس، وضرب القوانين الإسلامية عرض الحائط تحت ألف اسم واسم، وربط البلاد بالغرب والشرق أكثر فأكثر.

يقول أحد الكتّاب في العالم الثالث: (إن العالم الثالث كله يعاني من الفساد لأنه اتبع الكمية في قبال الأخذ بالكيفية، لقد أراد أن يحقق طموحاته، لكنها ذهبت ضحية منطق المركز والأطراف، أي علاقة البلدان المتطورة ببلدان العالم الثالث، وهو منطق التبادل غير المتكافئ، ومضمونه هو: أنك بقدر ما تطلب بقدر ما تسلب مضروباً في عشرة لقد أراد العالم الثالث أن يسير بسرعة معتمداً على موارد النفط والغاز وما أشبه، فكانت خسارته أكثر من خسائر غيره من البلدان، فقد رأينا تدهوراً مرعباً لإمكاناتنا، ولقد ولجت إلى بلادنا دودة مرض قاتل اسمه الفساد، فتحطّمت الزراعة والصناعة والتجارة، وصار في بلادنا وفي كل بلد (الحزب الواحد) وقد منيت البلاد بالفشل الذريع، عند نظام لا يسمح بالنقد البناء وبتعدد الأحزاب وحريتها في الإطار الإسلامي، ولا يقبل بتعدد الآراء، وإنما يسير في ركاب الحزب الواحد، بينما يمارس السلطة باسم الجماهير.

والأغلبية الساحقة من الناس يزجّون في الشعارات فهو نظام مآله الفشل ووسيلته للحكم الحديد والنار والقمع والإرهاب والمصادرة والتعذيب والسجون وكبت الحريات).

ثم لا يخفى أن إقامة الحكم الإسلامي في العراق وفي غيرها من كل بلاد الإسلام ذات الألف مليون مسلم تتوقف على:

١ ــ التوعية بما لا يقل عن ألف مليون كتاب.

٢ ــ التنظيم بما لا يقل عن عشرين مليون منظم.

٣ ــ تجنب العنف إطلاقاً في الأساليب والممارسات.

٤ ــ جمع الصفوف من علماء وخطباء وتنظيمات ودور النشر وسائر النشاطات الإسلامية.

٥ ــ مقاطعة البضائع الأجنبية مقاطعة تامة.

والله المستعان

قم المقدسة

محمد الشيرازي

(١) ــ سورة المطففين، آية ٢٦.